

الاسلام والديمقراطية

للأستاذ عبد المجيد نافع

أحببت أن أتكلم عن الاسلام والديمقراطية لأنى رأيت بعض الصحف الاجنبية كلما تعرضت للنظم في مصر قالت : ليست الديمقراطية مادة للتصدير ، وهى تقصد أنها لا تصلح لنا ولا نصلح لها . وما علمت أن قوما يدينون بالاسلام حرام أن تصبغ الديمقراطية بينهم

وإذا ناديت أن الاسلام دين الديمقراطية فانى استوحى التنزيل الحكيم ، وأستلهم الحديث الشريف ، وأستهدى المأثور من أقوال إعلام الاسلام ، وأحكم فى ضوء الاعمال الخالدة فى تاريخ الانسانية ، لئتم لى القول أن دين محمد قد كتب للحرية أجل الصفحات وأروعها ، وقرر من مبادئ الأخاء أسماها ، ومن قواعد المساواة أعلامها . فكان دين الديمقراطية من الوجهتين النظرية والعملية ، وكانت خير ديمقراطية أخرجت للناس

إذا اعتبرنا ميلاد الديمقراطية الغربية إعلان حقوق الانسان فى الانقلاب الفرنسى الكبير عام ١٧٨٩ فان الاسلام قد سجل مبادئها قبل مولدها فى أوروبا بأكثر من ألف ومائتى عام . وإذا كان الفضل للتقدم ، فالفضل للاسلام فى تحرير الانسانية من رقة الاستعباد ، وخلاصها من أغلال الأوهام

جاء الاسلام فوضع قواعد الديمقراطية فى غير جلبة ولا ضوضاء ، ودون أن يحدث هزة عنيفة فى كيان الأمة العربية ، بل دون أن يريق قطرة واحدة من الدماء . على حين أن الروح الديمقراطية لم يستطع أن يتنفس فى جو أوروبا ، وبذور المساواة لم تنبت فى البيئة الغربية ، إلا بعد قرون ثلاثة حافلة بالثورات ، وصراع دموى بين طبقة الأشراف وطبقات الشعب ، صبغ أرض أوروبا بالدماء

وسترون أن الاسلام جاء بالأخاء الصحيح ، والمساواة الحق فى حين أن الديمقراطية العصرية ، باعتراف أنصارها وخصومها على السواء ، لم تبرا من شوائب النظم البالية العتيقة

الديمقراطية ، فى اصطلاح العلوم السياسية ، هى النظام الذى يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه ، إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارهم عنه

على أنى أسارع إلى القول بأن مدلول عبارة الديمقراطية قد اتسع اليوم نطاقه بحيث أصبح يشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية فوق اشتتاله على النظام السياسى . ولو شئنا أن نستغنى بالاجمال عن التفصيل ، لقلنا فى كلمة : إن الديمقراطية هى النظام أو مجموعة النظم التى تحقق مبادئ الحرية والمساواة بين الناس بقدر ما يمكن أن يكون الانسان حراً ، وبالقسط من المساواة الذى لا يصطدم مع التواضع الطبيعية

ورأيت الناس مشغوفين بكلمين بالديمقراطية حتى لأجدهم يسرفون فى استعمالها فيقولون الأدب الديمقراطي ، والفن الديمقراطي ؛ بل أراهم لا يقتصدون فى التبرع بها حتى يخرجوا بها عن معناها الاصلى ، فالرجل المتواضع فى عرفهم رجل ديمقراطى ، وإن كان للديمقراطية من ألد الخصام

عرف أرسطو الديمقراطية بأنها نظام الحكم الذى تنتقل السلطة فيه إلى أيدي طائفة من المواطنين الأحرار المتساوين عند طبقة الارستقراطية

يخلص لنا من هذا التعريف أن الحرية والمساواة هما الدعائتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

إن من ينعم النظر فى أقوال أرسطو يجد أن حكم اليونان كان متبرما بالنظام الديمقراطي فى عصره ، لا لأنه كان يتنكر لمبادئ الحرية ، أو يخاضع لتعاليم المساواة ، أو يضيق صدره بتوسيع دائرة اشتراك الشعب فى إدارة شؤون الدولة ، بل لأن النظام الديمقراطي فى عهده قد ساء حتى تردت اليونان فى هاوية الفساد والفوضى

كلما اتسع أفق المعارف الانسانية ، شعر الناس بالكرامة وأحسن العقل البشرى بالعزة ، فتطلعوا إلى تحقيق المثل العليا ، وطمحوا إلى توسيع قاعدة اشتراكهم فى إدارة دفة الشؤون العامة ، والهيمنة والإشراف على أمور الدولة ، لذلك كان النضال حاداً عنيفاً بين الشعوب الطامحة إلى الحرية ، والطغاة المستبدين الذين يصدونهم عن ميلها ، والتطاحن شديداً بين طبقة الأشراف التى تنعم بالامتيازات ، وطبقات الشعب التى تتطلع إلى تحقيق مبادئ المساواة . وإذن فمن الحق أن يقال : إن تاريخ الديمقراطية هو تاريخ الحضارة الانسانية

وما أنصف كارل ماركس الحقيقة والتاريخ حين صاح بان البطون هى مصدر الانقلابات فى كل أدوار التاريخ ، وأن الناس

حين هبوا بسفكون دماهم، ويزهقون أرواحهم، فأنما كانت هبتهم للخبز لا للحرية، وفورتهم في سيل أغراض مادية لا لتحقيق المثل العليا والسعي وراء الكمال الانساني

وما أنصف من قبله بعض قادة الفكر في روما حين قالوا بأن الشعب الروماني يجترى بالخبز والملاهي عن الحرية السياسية والاشتراك في تسيير أداة الحكم

وإذا كان قد أتبع لفريق من الرومان أن يقولوا ساخرين متهمين: لدى الشعب أصوات انتخابية وليس لديه خبز؛ فقد كان ذلك من جرائم فساد النظم، وانحطاط أداة الحكم، لا من جرائم مسخ الطبيعة البشرية

تميز تاريخ روما القديمة بسلسلة من المناضلات متصلة الحلقات بين جماعة الأشراف وطبقات الشعب لتحقيق مبادئ المساواة على أن تربة روما لم تكن صالحة لنمو بذور الديمقراطية، وكلما اتسع ملك الرومانيين وبسطوا سلطانهم في الأرض طلقوا مبادئ الديمقراطية واعتنقوا روح الاستعمار، وأقاموا بناء إمبراطوريتهم على الغلبة والقهر، وأصبحت الأمم المغلوبة على أمرها أسلابة تقتنى وضياعا تستغل

كان المسلمون إذا فتحوا أمة تركوا لأهلها حرية العقيدة وحرية العبادة وخلوا بينهم وبين أملاكهم، وضمنوا لهم أمنهم وأرواحهم وسوا بينهم في المعاملة وعتقوا فيهم بذلك المبدأ القويم: لهم مالنا وعليهم ما علينا وكذلك كان الاسلام كلما دخل أمة حمل معه بذور الاخاء والمساواة.

أود أن أضع تحت الأنظار صورتين متباينتين لأمة اليونان القديمة، وأمة العرب قبل بزوغ فجر الاسلام، لتروا بأعينكم وتلصوا بأيديكم، إلى أي حد وفق دين الهدى والحق إلى صنع جزيرة العرب بالصيغة الديمقراطية وطبع أهلها بطابع المساواة كانت اليونان القديمة بطبيعة تكوينها ومزاج أهلها مهاداً صالحاً للديمقراطية، فقد كانوا يقيمون بالمدن ولا مشاحة في أن المدن هي مواطن الديمقراطية. وكانت ميول اليونانيين متجانسة، ومشاعرهم منسجمة، ومصالحهم متحدة، غير متنافرة تجمعهم ذكريات تاريخية مشتركة، وتؤلف بين قلوبهم مثل عليقة واحدة على التقيض من ذلك تماماً تجد سكان الجزيرة: فقد كان العرب يسكنون مضارب الحيام، وانقسموا إلى شيع وقبائل. وكانت أهواؤهم متفرقة، ومصالحهم متنافرة. بل كانت المنازعات

بينهم سلاسل متصلة الحلقات، والحروب متواصلة الضروب ومن يشكر اعتزاز العرب بالعصية ١٤

ومن ينسى تطاولهم بالاحساب والانساب ١٤

ومن ذا الذي لم يملأ سمعيه باخبار مفاخرتهم ومكائرتهم ومنافرتهم ١٤

فأنت ترى من هذه الصورة أن جزيرة العرب لم تكن المهاد الصالح لنمو شجرة الديمقراطية، والعرب لم يكونوا القوم المستعدين لإساعة تعاليم الديمقراطية وضمها

وجاء الاسلام فنشر راية الديمقراطية، وبث مبادئ الاخاء والمساواة، لا لأن الجو كان مهيئاً لها، ولا لأن العقول كانت مستعدة لضمها، ولا لأن الاسلام شاء أن يتمشى مع العرب في رغباتهم، ومنازع نفوسهم ليضم الأولياء، ويكسب الانتصار، ولكن الاسلام جاء فالتى بذور الديمقراطية، لأنه دين الفطرة، لأنه دين الانسانية الطائفة إلى الكمال، لأنه الدين الذي أخذ نفسه يبت أحكم المبادئ، وغرس أقوم الأحكام.

أجل، لقد حمل الاسلام راية الاخاء وأهاب باتباعه: إنما المؤمنون إخوة. والمؤمنون بعضهم أولياء بعض: وعبيدكم الذين هم ملك يمينكم إخوانكم في الدين.

نعم، لقد رفع الاسلام لواء المساواة، وأذن في أنصاره: لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، والناس سواسية كأسنان المشط.

ولم يقف الاسلام عند حد تلقين أتباعه مبادئ الاخاء والمساواة نظرياً، بل راضهم عليها عملياً، فشرع لهم الأحكام القائمة على الاخاء والمساواة، وأراهم القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة، فطبعت قلوبهم على الاخاء، وأشربت نفوسهم حب المساواة، حتى صاح أعرابي في وجه عمر صيحته التاريخية الخالدة، ولم يتعثر، ولم يتلجج: لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا.

انطلقت شعلة الديمقراطية في عصور الظلمات في أوروبا، وخبا نور الحرية، واندثرت معالم المساواة، وانشطرت المجتمع الأوروبي إلى ثلاث طبقات: فريق الأشراف، وجماعة الأكليروس، وطبقة الشعب. وكان التاريخ الغربي صفحة دامية من التصلب بين الشعوب المهضومة الحقوق والظلمة المستبدية الذين يشكرون لتلك الحقوق فيسكرونها. واتصل الطلائع بين الطبقات؛ فأما الأشراف فكانوا يحرضون على امتيازاتهم، وأما رجال الدين فكانوا يضمنون بأنفسهم أن يهبطوا إلى مستوى الشعب، وأما

الشعب الطامع الطامع في رد اعتبار الكرامة البشرية، ووضع حد لامتحان العقل الانساني؛ فلم يرض بأية تضحية يبذلها في سبيل الحرية والمساواة، فبذل دماء المجاهدين بسخاء.

كانت الحرية السياسية منعدمة، والحرية الشخصية كلمة جوفاء، والحرية الدينية خيالا متلاشياً، والمساواة عبارة ذاهبة في الهواء. وكان الملوك المستبدون يستمدون عناصر طغيانهم بما أسماه الحق الالهي. وكان الاشراف يلتصمون أسباب تميزهم من اختلاف المولد، ورجال الدين يتوسلون إلى التمتع بالامتيازات بما تناولوه من نصوص الدين، وصبرت الشعوب وصارت حتى عقد النصر بلوائها على تلك القوى مجتمعة.

وشاورهم في الامر: وأمرهم شورى بينهم: وكذلك وضع الاسلام قاعدة الحكم النيابي.

وما كان على الاسلام أن يضع غير الاصول والكليات والقواعد العامة؛ فاما الصور والاشكال التي يتحقق بها معنى الحكم النيابي فن الطبعي أن يترك اختيارها للفاطمين بالتنفيذ.

ولا تحسبوا أن الحكم النيابي لا يوجد إلا حيث يوجد مجلس نواب ومجلس شيوخ. ففي مدن اليونان القديمة كان الشعب يحكم نفسه بنفسه مباشرة بغير واسطة نواب أو ممثلين. وكذلك الشأن اليوم في بعض المقاطعات السويسرية حيث يحصل استفتاء الشعب في جميع الشئون التي تمس حياته العامة. ولقد يوجد التمثيل النيابي وعلى الرغم من وجوده تعدد سلطة الامة وتصبح خيالا متلاشياً. ثم ألا ترى أنصار الحكم النيابي وخصومه على السواء في أوروبا يشكون من اضطهاد الأغليات للأقليات وتراهم يحاولون أن يطبوا لهذا الداء بواسطة التمثيل النسبي؟

الشورى إذن هي قوام الحكم النيابي وهي دعامة وروحه دون اعتبار بالصور والاشكال.

في الصدر الأول من الاسلام كانت يطبق مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً.

أيقن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه لم تعد للمسلمين مندوحة عن حرب الفرس، وأنه إذا دانت لهم تلك البلاد خففت راية الاسلام في ربوع الشعوب.

لم يشأ ابن الخطاب أن يستبد بالامر أو يستأثر بالرأى وهو من تعلم بعد نظر وصواب فكر وقوة حزم وعزم، بل أراد أن ينزل على رأى المسلمين فيمن يصلح لتول القيادة؛ وأراد أن لا يضيق دائرة الاجتهاد أو يقصرها على فريق دون فريق، فاستشار العامة والخاصة معاً. فاما العامة فأشاروا عليه أن يكون نفسه على

رأس الجيش إذ كان الناس أشد تعلقاً به، وأكثر طاعة له. وأما الخاصة فأشاروا عليه بأن يسلم القيادة لغيره وأن يبقى هو بالمدينة ضناً بجيانه وحرصاً على بقاءه يدبر دقة الشئون. ثم ارتأوا أن يكون سعد بن أبي وقاص على رأس الجيش، فنزل عمر على إرادتهم وولاه القيادة.

وضع الاسلام دعائم الحكم النيابي وطبق أبو بكر وعمر مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً.

لكن وأسفاه ما لبثت دولة بني مروان أن احتك خلفاؤها بالفرس والروم فرأوا مبلغ تسلط الحكومة على الرعية، وإذعان المحكومين لسلطان الحاكمين، فنجحوا للاستبداد، وضربوا بمبدأ الشورى عرض الافق، ذلك بأن النفس البشرية نزاعة إلى الاستبداد بغير طرتها، والبيئة في طبع النفوس بطابعها أثر أي أثر.

ولو أن بني مروان لم ينزعوا إلى الاستبداد لما وجدت دعاية بني العباس ضدّهم سمياً ولا مجيياً.

كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأمر باصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله علي ذبحها، وقال آخر: علي سلقها، وقال ثالث: علي طبخها. فقال صلى الله عليه وسلم: وعلى جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك ذلك، فقال قد علمت ولكنني أكره أن أتميز عليكم، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه؛ وقام لجمع الحطب.

ولا أريد أن أشوه جلال هذا المثل الرائع بمحاولة التعليق عليه ولما استقرت الخلافة إلى أبي بكر، وذلك سنة إحدى عشرة بعد المنبر لحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنتم فأعينوني وإن أسأت ققوموني.

وبما يروى عن زهده ورضاه بالكفاف من العيش إن زوجته اشتدت حلواً. فقال: ليس لنا ما نشترى به. فقالت: أنا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشترى به. قال: افعل، ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء قليل، فلما عرفته ذلك ليشتري به حلواً اخذه فردّه إلى بيت المال. قال: هذا يفضل عن قوتنا، وأسقط من نفقتنا بمقدار ما قصصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له ولما ولي الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه والارتزاق

من ورام عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً وأصبح يوماً وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فلقبه عمر فقال: أين تريد؟ قال: إلى السوق. قال: أتصنع ماذا وقد وليت

«المسلمين؟ قال: فن أين أطعم عيالي؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة، فانطلقا إلى أبي عبيدة فقال: افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم كسوة الشتاء والصيف، إذا أخلفت شيئاً رددته وأخذت غيره، فقرضاً له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن وأخرج ابن سعد عن ميمون قال: لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال: زيدوني فإن لي عيالا وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة

وخطب عمر بن الخطاب يوماً فقال: أيها الناس من رأى منكم في أعوجاجا فليقومه. فقام رجل فقال: والله لو وجدنا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. فقال عمر: الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم أعوجاج عمر بسيفه أراد أحد ملوك الروم أن يتعرف شخصية عمر العظيمة ويتبين العوامل التي جعلت حفنة من العرب تدوخ الممالك وتبسط سلطانها على الإمبراطوريات الضخمة العظيمة، فبعث برسول فتلس الرسول طريقه إلى عمر، وإذا سأل الناس عنه أشاروا إلى رجل نائم إلى جانب جدار وهو يتوسد عصاه. فقال: عدت فأمنت فمت يا عمر.

ولما سیر العرب جيوشهم على مصر وعلى رأسها عمرو بن العاص أرسل ملك مصر من يستطلع طلع تلك الحملة. فأراعه إلا أن يرى عمراً القائد للجيش يتبسط في تناول الطعام مع جنوده على الأرض. إقلاً ارتد الرسول فأعطى الملك تلك الصورة الرائعة قال: إن قوماً ذلك شأنهم، وتلك حال كبارهم مع صغارهم، محال أن تجد الحرمة إلى صفوفهم سيلاً.

يجترى خصوم الاسلام على الدعوى بأن يجد الاسلام قام على السيف. وتلك دعوى باطلة تضافر العدل والحق على هدمها من أساسها.

وكيف يجوز في عقل عاقل أن حفنة من الرجال تقوى على هدم إمبراطوريتي الرومان والفرس إذا لم تكن عندهما إلا السيف؟ أين قوة العرب المادية من قوة الفرس والرومان؟ وأين مواردهم من مواردهم؟

وكيف استطاع المسلمون أن يفتحوا في ثمانين سنة ما فتحه الرومان في ثمانمائة؟ فامتد رواق الملك العربي من الأندلس إلى حدود الهند، وخففت راية الاسلام فوق تلك الربوع جميعاً؟ عندى أن المبادئ الحققة العادلة هي التي مهدت للمسلمين السيل إلى بسط ملكهم في الأرض..

ثلاثة قرون كاملة حفلت بالثورات الدموية في سبيل تقرير قواعد الديمقراطية العصرية في أوروبا. شهدت إنجلترا انقلابين في سنة ١٦٤٢ و ١٦٨٨. وفي عام ١٧٦٦ وقعت حرب استقلال أميركا خلّعت نير الاستعباد البريطاني. واضطرت نيران الثورة في فرنسا في عام ١٧٨٩. وكان شجرة الحرية كانت لاتزال في حاجة لدماء لترويبها، والديمقراطية لضحايا وشهداء لتغذيها، فأججت نيران الثورة في ١٨٣٠ و ١٨٤٨. وتواصلت الثورات في أوروبا — بين ١٩٠٦ و ١٩٢٠

فأتم ترون أن النصر لم يعقد بلواء الديمقراطية إلا في القرن التاسع عشر

وفي أواسط القرن الثامن عشر في فرنسا لم تكن حرية سياسية ولا مساواة اجتماعية. حتى هب فولتير وروسو يبشران بمبادئ الحرية والمساواة. وتشبع لافايت بتعاليم الديمقراطية، فلما عاد ورفاقه إلى فرنسا حملوا إليها بذورها الصالحة.

وجعل روسو براءة الاستغلال في كتابه «العقد الاجتماعي» ولد الانسان حراً على أننا نراه في كل مكان يرسف في القيود

وأعلنت الثورة الفرنسية حقوق الانسان في عام ١٧٨٩ — وجرت المادة الأولى من إعلان الحقوق: يولد الناس أحراراً ويعتقون أحراراً ومتساوين

رأيتهم أن الحرية والمساواة هما الدعائتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية.

ولقد جاء الاسلام فأعلن حقوق الانسان قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ١٢٠٠ سنة

أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم. قال: عدت معاذاً: قال: سابت ابن عمرو بن العاص فسبقت فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدرم عليه ويقدم بانه عليه تقدم: فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين. ثم قال للمصري: ضعه على صلعة عمرو، قال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو: مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتي. يعني المصري.

«ينبع»

عبد المير نافع
الحامى